٦٤ عامًا
على النكبة... والمقاومة

مذكرات (فريال سويد)، قصيدة (خليل أبو سلمى)، صور (فادي خطاب)

جدّاتي والولادة من الحكاية

فريال سويد ❖

إلى معتصم أبو خميس، وجدّته التي صعدتْ

عندما ينتهي خطُّ السماء من تبديل ثوبه الأرجوانيّ، ويَفرغُ مؤذّنُ الجامع القريبِ من تكبيراته معلنًا بدءَ طقوس عيد الأضحى، يعودُ زائرو القبور من إلقاء التحيّة على بعض ماضيهم. أما أنا فأستحضرُ الأعيادَ التي وعيتُها بلحظاتها، مستدركًا تكرارَها بتفاصيلها. هؤلاء الذين وعدوا أنفسَهم بالعودة إلى أوطانهم يتجمّعون زرافاتٍ، حسب طاقة كلِّ بيت، النسبُ الأقربُ ثمّ الأبعد، وبعدها تنقطعُ السلسلةُ لتلتئمَ في مركزٍ آخر. وبعد انتهاء التقليد الأوّل، الإفطار، تنفضُّ الحلقاتُ ليُعادَ تجميعُها بترتيبٍ مختلفٍ في مواقعَ مختلفة. وهكذا...

تعدُّ جدّتي الإفطارَ على مهل. تقلّبُ الوجبةَ على نارٍ هادئة، وتنتظرُ بصبرٍ الوصولَ إلى النهاية. في العيدِ الأخير الذي عاشته، وقبل أن ينضجَ طبخُها، نادت على زوجها الراحل منذ سنوات، وأخبرته أنّ الطعامَ فقدَ آخرَ نكهاته من بعده. كان بوحًا مفاجئًا؛ فقد كنتُ أعرفُ أنّها لم تعدْ تضيف الملحَ إلى الطعام منذ النكبة، ولكنْ لم يخطرْ في بالي أنها رويدًا رويدًا كانت تفقدُ كلَّ النكهات. «طبخك حلوٌ يا جدّة،» كنّا نمازحها، فتناولنا الملحَ وهي تردّدُ: «أن لا يكونَ مالحًا لا يعني أنّه حلوُ المذاق.»

أفتقدكِ يا جدّة، وأكثرُ ما أفتقده فيك مرارةُ حكمتك.

❖ ❖ ❖

نتحلّقُ حولها، ونأكلُ فقط لنسمعها تروي الحكاية: «... كنّا نجتمعُ بمعيّة المرحوم أبي. كان بطول الباب. لم يلبسْ ثوبَ غيره؛ حتى تابوته الذي زففناه فيه شهيدًا فُصِّلَ خصّيصًا له.» كانت هذه لازمتَها التي تبتدئُ فيها القولَ، وتنتقلُ بعدها إلى وصف البيّارات، أو الخضرة في البلاد، أو فستان عرسها المزركش؛ فكلُّ ذلك يمرُّ عبر والدها. تمدُّ الياءَ كثيرًا، وتَشبّح بيدها ما وسعتْ، وتغنّي له «يا ظريف الطول،» فنأخذُ بالتصفيق. قبل أن ينتشرَ التديّن، وتبدأَ أمّي وأخواتي بالغمز والثرثرة بالحرام والحلال، كانت تقفُ وتتمايلُ على إيقاع الأغنية. أحنُّ إلى والد جدّتي، وأكثرُ ما أحنُّ له صوتُه المنادي في الأرض: «ويلي عليك، مَنْ لك بعدي.»

❖ ❖ ❖

تخبرنا الجدّةُ أنّها تزوّجتْ وهي صغيرةٌ جدًّا؛ بل إنها عندما رُزقت بكرَها، أبي، لم تعرفْ ماذا تفعل به. كان يزعجها ببكائه، فتشاركه البكاءَ، وتحمله راكضةً إلى أمّها كي تسكتَه. «كان بيتُنا لصق بيت أهلي، حتى إنّ أمّي كانت تصرخُ بي من بيتها وأنا أطبخُ: وطيّتي تحت الأكل يمّة؟» تميلُ برأسها، وتنظرُ إلى صورة جدّي المعلّقة على الجدار: «ما لحقت أعرف شي بالدنيا، حتى أخذه الكريم.» جدّي كان قصيرَ القامة، ولم يكن فلاحًا مثل أهلها، ولكنّها أحبّته. عرفتُ هذا من عينيها.

جدّي، لمَ رحلت مبكّرًا؟

❖ ❖ ❖

تُخرجُ من خزانتها صرّةً صغيرةً. كلّنا يعلمُ أنّها «تصرصر» المالَ رزمةً رزمةً طوال العام حتى تجمعَ «العيديّات.» وبعد أن نجتمعَ مرّةً أخرى، بعد غسل أيدينا، نتقاطرُ إثرَ بعضنا بعضًا لنتمنّى لها عيدًا سعيدًا، فتَنْقدُ كلاًّ منّا ما خصّصته له. حتى أبي كان يناله نصيبٌ، بعد أن يقبّلَ يدَها بسَكينةٍ ويشكرها على عمرها الذي أفنته من أجله وأجلِ إخوته وأخواته، وينسلّ إلى ركنه متأمّلاً بقيّةَ المشهدِ بعينين محمرّتين ووجل.

يذكّرني والدي، كلّما تضايقَ من أفعالي، بأنّه حزينٌ طوال الوقت لأنّه أهان أمّه حين جعلها تدورُ مكاتبَ المقاومة بحثًا عنه قبل أن تعرفَ أنه مع أحد فصائلها في لبنان. كان فدائيًّا سابقًا، إلا أنّه من كلِّ تجربته لم يحدّثنا إلا عن عذاب أمّه، ومدى حبّه لجبل لبنان. ورغمَ متابعته المثابرة للأخبار، فإنّ التعليقَ الوحيد الذي كنّا نسمعُه منه: «فلسطين بعيدة.»

لِمَ أنت بعيدٌ يا وطني؟ لماذا تزدادُ بعدًا بعد كلِّ نشرة أخبار؟

❖ ❖ ❖

تراعي الجدّةُ الزمنَ في روايتها: من والدها، والأرض التي تنجدلُ بالنكبة فتميلُ من البنّيّ الغامق إلى الأسودِ قبل أن تفقدَ لونَها؛ إلى جدّي المكوّر، الذي ينفردُ كلّما وعته، قبل أن يتسرّبَ في مسام كلِّ الأشياء ويذوب؛ وصولاً إلى أبنائها، الذين امتلكوا الجرأةَ

❖ قاصة فلسطينيّة لاجئة.

الكافيةَ لقطع شرايينهم عن جسدها ووصْلها بأركان الأرض، غير متجرّئين على حبل السرّة، ربّما خوفًا على أنفسهم أو عليها أن تذبلَ فيفقدوها. وإنْ كان كلُّ ذلك بقي يشغلها حتى أغمضتْ عينيها للمرّة الأخيرة، إلا أنّ هاجسَها بقي دومًا حفيداتها على وجه الخصوص. فلئن كانت تروي لنا جميعًا الحكايةَ طقسًا دينيًّا مستمرًّا، فإنها كانت ترتّلُ عليهنّ آياتها مشحونةً بتواصلٍ أنثويٍّ لم أستطعْ فهمه، مع أنني حاولتُ المشاغبةَ مرّاتٍ كثيرةً لجذب نظراتها إليّ. كانت ترمقني بحنوٍّ العارف بحالي، قبل أن تعيدَ وهبَ أخواتي بريقَ عينيها. ودوني، ودون بقيّة الذكور، تأخذهنّ في أسفارٍ خاصّةٍ إلى الماضي: تمسكُ أيديهنّ الصغيرةَ، وتتمسّكُ بهنّ في حضنها ساعاتٍ في زوايا البيت، هامسةً بما لم أجدْ سبيلاً إلى سماعه. ومع الوقت، وهبتهنّ ملامحَها وسحنتَها. ومع السنين صرنا نسمعهنّ يكملن روايتها حين تتوقّفُ لتأخذَ نفسًا، حتى تحوّلتْ قصصُها إلى معزوفاتٍ تشتركُ وإيّاهنّ في تقاسيمها.

جدّاتي الصغيرات لم يكتفينَ بحفظ قصص البلاد، ولا باحتضان المشاعر التي رافقتْ راويتها الأولى، بل عرفن كيف يفضن بها لينشغلَ فضاؤنا برائحة البرتقال، وانتعاش الزيتون، وقامة جدّي التي ما فتئتْ تزدادُ طولاً، والأرض التي تستعيدُ من احمرار وجناتهنّ لونَها.

❖ ❖ ❖

يكادُ سلكُ الهاتف أن يكونَ من حبل سرّة جدّتي؛ فهو يكملُ طقوسَ العيد بوصل الجدّة بأولادها المنتشرين في المنافي وبعض الوطن. ينبّهنا جرسُ الهاتف، حين تصلُ الحكايةُ إلى ذكر الأعمام، إلى أنّ أحدَهم قد تاق إليها. ومع إصغائها عبرَ السمّاعة تضيءُ عيناها ببريقٍ مختلفٍ تتعلّقُ به البناتُ من بيننا ويملن برؤوسهنّ عساهنّ يلتقطن رائحة الأرض من الصوت البعيد. «ما تاكل همّ يمّا، كيف بناتك؟.. وصبيانك؟.. كيف الشجرات بغيابنا؟»

كان يومًا أسودَ ذاك الذي أعلمها فيه عمّي أنّ جدارَ الفصل العنصريِّ حال بينه وبين رؤية الأشجار من نافذته. يومها قالت إنّ «النكبةَ لا تزالُ تتّسع،» فأخذتُ أتصوّر النكبةَ ثقبًا أسودَ يبتلعُ المكانَ والزمان، ونحن نقفُ على حافّته ممسكين بجلبابِ جدّتي حتى لا نذهبَ في الظلام.

جدّتي خاطت لأخواتي جلابيبَ كثيرةً، حرصتْ على أن تكونَ حوافُّها متينةً، وصمّمتْ فيها طيّاتٍ لنتمسّكَ بها. بعدها، بقيتْ تسألُ عمّي عن بناته وصبيانه، وتتركُ وقتَ السؤال عن الأشجار من دون انشغالٍ إلاّ بترقّبنا، قبل أن تنتقلَ لتذكّرَهُ بطول والدها.

❖ ❖ ❖

مرّةً واحدةً تركت الجدّةُ مخيّمَ اليرموك، حين أخذتنا، أنا وإخوتي وأخواتي، لنلتقي أحفادَها الآخرين في عمّان. لم تغيّرْ كثرةُ العدد من عاداتها؛ ربّما زادت من علوِّ صوتها حرصًا على أن نسمعَها جميعنا، وزادت من حركتها لكثرة البنات اللواتي يحتجنَ إلى التواصل الخاصّ، ولكنّها أكّدت على رصانتها بسهولةٍ بيّنتْ أنّها أصيلةٌ في عقلها وروحها. لقد اجتهدتْ في وصل شرايينا بعضها ببعض، وقلّبت احتمالَ اهتمام الذكور في سنّ الزواج بنظيراتهم من البنات، ووضّحتْ أنّ الجدَّ المشتركَ بطوله الفارع، والأرض العطشى إلى اجتماع أحبّتها عليها، مشتركان يعلوان على التباينات. حتى جوازات السفرِ الأربعةُ المختلفة التي نحملها، وأخذنا نتبادلها بفضول، لم تثر استغرابَها. وفضلاً عن ذلك، أشارت إلى طول أبيها، الذي ثبّتته كنيةً لعائلتها عندما سُئلتْ في دائرة النفوس عن كنيتها، بعد وصولها وزوجها إلى سوريا، فقالت:

ـ بيت الطويل.

دمشق